الأزهـــــر

الجامعة القديمة ــ الحديثة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

وهو تعريب للمقال الفرنسى أنشأه فضيلته إجابة لرغبة وزارة الخارجية المصرية، لنشره فى جريدة « الموند » الباريسية فى عددها الخاص بمصر ، بمناسبة انعقاد جمعية الأمم المتحدة فى دورتها السادسة بباريس (١٩٥١ — ١٩٥٢) .

إذا حق لجزيرة العرب أن تفخر بأنها هى مبعث الشعاع الأول للنور الإسلامى وأنها هى الحارسة لرمزه الروحى فى الكعبة المشرفة ، فإن الفخر يعود فى المرتبة الثانية إلى «مصر» التى اقتبست هذا الضوء فى باكورته ، ثم احتفظت بسراجه دائم التوقد فى تلك المشكاة العلمية الدينية التى اسمها « الأزهر » والتى هى اليوم أقدم جامعة فى العالم على الإطلاق .

وفى الحق إن هذه البنية المعظمة فى « القاهرة » تعد فى نظر المسلمين شبه كعبة ثانية . فهذا المعهد هو قبل كل شىء مثابة المتفقهين فى الدين ، يحج إليه فى كل عام ألوف من الطلاب من كل فج ليتزودوا منه غذاء عقولهم وأرواحهم . وهو من وراء ذلك قبلة المسلمين الذين تتباعد بهم الديار ، ويشق عليهم المزار ـ لا أقول إنهم يولون وجوههم شطره فى صلاتهم ، كما هو الشأن فى الكعبة المكرمة . ولكنى أقول إن أربعمائة مليون من المؤمنين يتجهون إليه بقلوبهم وعقولهم ، ينتظرون إشارته فى المهمات ، ويستنيرون برأيه فى الشبهات ؛ إذ هو أكبر المجمع الذى يضم أكبر عدد من أهل العلم بهدى الإسلام .

Scanned with CamScanner

هذا الدور المزدوج الذى يقوم به الأزهر فى تثقيفه للشباب الإسلامى ، وفى قيادته الروحية للشعوب الإسلامية ، يفسر لنا لماذا أحاطه الخلفاء والملوك والأمراء والمحسنون فى كل العصور بذلك الاهتمام البليغ وتلك العناية الصالحة فى السهر على شؤونه المادية والأدبية .

— ١ —

لمحة عن التاريخ المعمارى للأزهر

ذلكم البيت المعمور الذى أرسيت قواعده فى عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله على يد قائده جوهر الصقلى فى سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) كان يتألف فى أول إنشائه من قسمين : « فناء » ، فسيح يحيط به نطاق من الأعمدة المعقودة ؛ و « مقصورة » أو « مصلى » ، لا تقل عنه اتساعا ، يشقها « بجاز » ممتد من بابها إلى المحراب .

ولا تزال معالم القسمين قائمة إلى يومنا هذا لم ينلها تغيير جوهرى .

نعم إن بعض أجزاء المقصورة قد تناولها شىء من الترميم استجابة لضرورة حفظها وصيانتها . ولكن سائر أجزائها لا تزال كما وضعت أول يوم ؛ ولا سيما « المحراب » الذى نراه الآن بنقوشه ورسومه العتيدة ، و « البجاز » الذى نشاهد أعمدته بنقوشها ورسومها الأولى . وكذلك نرى الأعمدة المضروبة حول الفناء قائمة على حالها لم تتسنه ، وإنما أضيف إليها فى مبدأ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) نطاق آخر من الأعمدة من أمامها .

هذا ولقد بقى الأزهر قرونا عدة مكتفياً بحدوده الأولى هذه ؛ حتى كانت بداية القرن الثامن الهجرى ، فهنالك أخذت تضاف إليه فى عصور مختلفة زيادات كثيرة أصبحت فى مجموعها أشبه بصوان يحيط به من كل جانب ، حتى صار « فناؤه » الخارجى « صحنا » داخليا ، وحتى بلغت مساحة المسجد الآن ١١٣٨٠ مترا مربعا ، لا يدخل فيها حساب الملحقات .

أولى هذه الإضافات تستقبلنا بمجرد ما نضع أقدامنا فى المسجد عند دخولنا

Scanned with CamScanner

من الباب الكبير الشمالى الغربى المطل . على الميدان ذلك أننا نجد أنفسنا فى دهليز متوسط الاتساع، فاصل بين جناحين من الأبنية عن يمين وشمال ؛ ونجد أمامنا باباً كبيراً آخر داخليا يفتح على صحن المسجد . فهذا الباب الداخلى الذى يفتح على الصحن هو أول حدود المسجد التاريخى . أما كل هذه الأبنية عن اليمين والشمال فيما بين البابين ، وكذلك الأرض التى أقيمت عليها هذه الأبنية ، فإنها من الزيادات التى ضمت إلى الجامع فى القرن الثامن الهجرى وما بعده .

فالجناح الأيمن (ما عدا منارتيه) أنشأه الأمير طيبرس فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م) والجناح الأيسر بمنارته أقامه الأمير أقبغا فى سنة ٧٤٠هـ (١٣٤٠م). والباب الداخلى والمنارة الرشيقة التى فوقه إلى يمين الداخل من عمل السلطان قايتباى فى سنة ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) والمنارة العظيمة ذات البرجين التوأمين وهى التى تلى هذه على اليمين أيضا من صنع السلطان الغورى فى سنة ٩١٥ هـ (١٥١٠ م) .

لقد كان الجناحان فى نظر مؤسسيهما مدرستين؛ ولكن التثقيف العقلى فى رأيهما (وكذلك هو دائما فى نظر كل سياسة رشيدة) لم يكن لينفصل عن التهذيب الروحى ؛ ولذلك أقام كل منهما فى مدرسته محرابا [1] أنيقا دقيقاً من الرخام والذهب ، لا يزال يتحدى الزمان بنضارته وجدته ، كأنما صنع أمس .

والجناحان [2] اليوم مشغول معظمهما بالمكتبة الأزهرية التى تعد من أنفس المكتبات فى العالم ، بما فيها من المخطوطات النادرة ، والمجلدات التى تبلغ زهاء مائة ألف مجلد .

فلنغادر الآن هذه الزيادات ، ولنعبر « الصحن » فى خط مستقيم ، ولندخل المقصورة مجتازيها إلى المحراب . . . هنالك سنشعر بشىء من الدهشة ؛ إذ نجد المحراب غير مستند إلى جدار القبلة كما هو شأن المحاريب ، بل نراه منعزلا تمام

---

(١) بل إن مدرسة أقبغا تحتوى محرابين اثنين .

(٢) الجناح الأيسر حول إلى مكتبة منذ سنة ١١١٤ هـ (١٨٩٦ م) . والجناح الأيمن شغل جانب منه ببعض القاطر فى عهد قريب .

Scanned with CamScanner

العزلة فى وسط المصلى ؛ ونلاحظ فوق ذلك أن الأرض التى تمتد من خلف هذا المحراب ، والتى تكاد تعادل مساحة الأرض التى أمامه ، مرتفعة عن هذه بحيث يصعد إليها بدرجتين ؛ ونرى أخيراً أن هناك محرابا ثانيا مستنداً كالعادة إلى الجدار الجنوبى الشرقى ، الذى هو جدار القبلة .

غير أن هذه الدهشة ستزايلنا متى عرفنا أن هذا الإيوان المرتفع قليلا ، والمحراب الذى عليه ، المتصل بالجدار ، (وكذلك البابان اللذان فى هذا الجدار ، والمنارتان المقامتان فوقهما) كل هذه زيادات، جديدة فى المقصورة أضيفت إليها أخيراً على يد الأمير [1] عبد الرحمن كتخدا فى سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣ م) . ومن السهل حينئذ أن نعرف إلى أى حد بلغ ورع هذا الأمير وتقواه فى المحافظة على تراث سلفه الصالح ، وعدم الجرأة على تغيير شىء من معالمه بغير ضرورة مادية . . وهذا هو ما يسمى فى لغة العصر الحاضر : احترام الماضى وصيانة آثار القدماء .

قبل أن نتأهب للانصراف من هذه المقصورة يجمل بنا أن نقترب من جدارها الشمالى الشرقى . . . فسنجد فيه بابا صغيراً ننفذ منه إلى مبنى جميل أقامه الأمير جوهر قانقباى المتوفى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) . لقد بناه هذا الأمير ليكون مدرسة صغيرة ، ولكنه جمع فيها كل عناصر المسجد الكبير مع جمال التنسيق ودقة الفن . وفيها قبة تقوم على قبر بانيها .

ولقد جدد الخديوى اسماعيل فى سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) بناء أحد البابين اللذين فى جدار القبلة ؛ كما أن الخديوى توفيقاً جدد فى سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) بناء الإيوان الذى ينتهى بهذا الجدار ؛ وهاتان المنشأتان المجددتان كانتا من عمل الأمير كتخدا كما يعلم مما أسلفناه .

* * *

(١) إلى هذا الأمير يرجع الفضل أيضا فى بناء الباب الكبير الذى فى المدخل على الميدان ، وفى تجديد واجهته اليمنى ، وهى جدار المدرسة الطيبرسية .

Scanned with CamScanner

على أن أحدث الزيادات وأضخمها هى المنشآت التى أقيمت بأمر المغفور له الملك فؤاد الأول وتم بعضها فى عهده ، ولا يزال العمل جاريا فى تكميل باقيها تحت رعاية شبله وخليفته جلالة الملك فاروق الأول . وهى مجموعات قائمة خارج نطاق المسجد ولكنها تشرف عليه من الشمال والشمال الشرقى ، ومن الشرق والجنوب الشرقى ـ فأما فى عهد فؤاد فقد برز الى الوجود فى سنتى ١٩٣٥ و ١٩٣٦ م أربع عمارات كبيرة خصصت واحدة منها لإدارة الجامعة ، والثلاثة الباقية لسكنى الطلاب . وأما فى عهد فاروق فقد تم حتى اليوم : (١) مدرج فخم على أحدث طراز يتسع لألفى مستمع . (٢) كلية للشريعة الإسلامية . (٣) كلية للغة العربية ، والكلية الباقية وهى كلية أصول الدين فى دور الإنشاء ، وإن للتصميم بعد لتكملة ستأخذ دورها فى التنفيذ تباعاً : (١) مكتبة فسيحة تتسع لنصف مليون مجلد (٢) معهد ابتدائى وثانوى يحضر للكليات الأزهرية . (٣) مستشفى . (٤) حديقة .

ولما كانت أزمة المساكن لا تزال فى حدتها فإنه ينظر الآن فى مشروع لبناء عدة بيوت أخرى لسكنى الطلاب ، ولا سيما الوافدين منهم من الأقطار الخارجية الإسلامية ، بحيث يتألف منها ومن المساكن القائمة الآن مدينة جامعية [1] حقيقية تتصل بحرم المسجد ومنشآته .

« يتبع »

---

(١) هذا المشروع ،الذى كان عند كتابة هذه الكلمات أمس لايزال فى دور التفكير والتروى ، أصبح الآن له قوام ملموس . فقد أذاعت الصحف اليوم نبأ الأمر الكريم الصادر من جلالة الملك فاروق بالمساهمة فى هذا العمل المبرور بمبلغ عشرة آلاف جنيه من الجيب الملكى الخاص ـ وهكذا يضيف جلالته مأثرة أخرى الى مآثره السابقة فى رعاية ضيوف الأزهر من طلاب الأمم الاسلامية .

Scanned with CamScanner